حوار جريدة الشرق مع الروائي عبدالعزيز بركة ساكن :
رواياتي تُرجمت واشتهرت عالمياً بمحض المصادفة [1]

– ما زلت أنحاز إلى حيث أنتمي.. الشارع
– ما زلت في بداية الطريق: مَنفيٌّ ومغرَّب وأعاني من البرد
– المرأة هي نقطة ضعفي الإنسانية، حيث تبدو لي دائماً خيرة، أكثر مما هي عليه في الواقع
– أعمالي تلقى الرواج لأن أمي تحبني بصورة كافية
– السياسة منتج ذكوري ينتمي إليه الجميع

حاوره: علي بس [2]

قبل أربعة عشر عاماً، جاء قادماً إلى الخرطوم، من مدينة في أقاصي شرق السودان تسمى «خشم القربة»، فتىً أسمر، مترعٌ بالكثير من أحلام شابٍّ ألقى رحله بعاصمة البلاد وأكبر مدنها لأول مرة في حياته.. ربما لم يفاجأ باحتفاء الوسط الأدبي بمحاولاته في كتابة القصة والرواية آنذاك، ولكن المؤكد أنه كان سيفاجأ وقتها لو علم أن قلمه النحيل الغض ذاك، سوف يورده بعد عشر سنوات فقط موارد أدناها النفي والتشريد والحظر، أو

(1) نشر الحوار بجريدة الشرف بتاريخ 24اكتوبر 2014.
(2) كاتب سوداني.

لو علم أن عقداً واحداً من الزمان سيكون كافياً لتترجم معظم أعماله إلى الكثير من اللغات الأوربية وتدرس في جامعات أوربا.. ذلك هو الروائي السوداني المقيم الآن بمدينة سالفلدن في النمسا، عبد العزيز بركة ساكن، صاحب الروايات التي أثارت جدلاً نقدياً و«سياسياً» كبيراً، وخصوصاً «الجنقو، مسامير الأرض» و» مسيح دارفور» و«ذاكرة الخندريس» وغيرها من روايات ومجموعات قصصية قصيرة..

الملحق الثقافي لجريدة الشرق جلس إلى «بركة ساكن» جلسة قصيرة أنتجت هذا الحوار.

- ثمة محاور أساسية تربط أعمالك؛ ففي روايات مثل «الجنقو.. مسامير الأرض»، «ذاكرة الخندريس»، «مسيح دارفور»، نجد الصراع الجوهري فيها يتنازعه قطبان، القطب الأساسي عندك دائماً هو المرأة، هي بطلك صاحب المبادرة دائماً، بينما القطب الآخر، الشيطاني، هو (السياسي) الذي يبدأ بطرح شعارات كبيرة وينتهي باستهداف شهوات صغيرة.. المرأة عندك بطل حقيقي، لكن ليس بطلاً ملائكياً، بل بطل إنساني واقعي لا يخلو من بعض، بل كثير، من نقاط الضعف اللطيفة.. ما سرُّ انحيازك للمرأة؟

المرأة هي المقاتل الوحيد في الكون، عليها أن تحافظ على بقاء النوع وعليها أيضا أن تتغلب على المصائد التي تنسجها لها خيانات الرجل: هي شراكٌ صغيرة ولكنها قاتلة. فتاريخنا مع النساء غير مشرف البتة.

فالسياسي أخذ صفة الذكوري وقام بتبني أحابيله في جعل المهمة أصعب أمام المرأة وذلك بتذكير الحمولات الأخلاقية الاجتماعية بصورة عامة، ونظرة سريعة للديانات وبعض الفلسفات الاجتماعية الكبرى مثل البوذية وغيرها نرى ذلك الانحياز: والدين أيضاً هو سياسة بمستويات كثيرة. فانحيازي للمرأة هو موقف ألتزم به ليس لإنصافها فحسب بل للمشاركة في الحفاظ على قيم الجمال التي تدعو لها المرأة وعن طريق هذه القيم تستمر الحياة بهية وطاعمه. وفوق ذلك كله هي ليست ملائكة وليست شياطين، فالكامل هو من كان كلاهما. فالمرأة عندي الأم في المقام الأول وهي نقطة ضعفي الإنسانية، حيث تبدو دائماً خيرة، أكثر مما هي عليه في الواقع، وما يظهر عليها من شرور هي خيارات صعبة وضعها فيها الرجل، إما بتخلِّيه عنها بحيلة الموت المكشوفة، أو بشراكه الصغيرة المميتة. وهذه الأم تتحول إلى الحبيبة والزوجة والصديقة والإبنة والعشيقة والأخت وما إلى ذلك مع المحافظة الدائمة على موقع الأم: فالمرأة خُلقت لكي تكون أماً، وأمي أنا بالذات.

- يلتبس - في كثير من شخصياتك الجوهرية - مفهوم «الجريمة»» بالمعنى الآنساني - الأخلاقي».. ود أمونة مثلاً، بطل رواية «الجنقو»، ذلك المنحرف الزنديق الذي لا يعرف أنه زنديق، هو بوجه آخر «إنسان» يمكن أن يجد من يتعاطف معه، بل ويحبه حتى، فهو صنيعة مجتمع غير متوافق وغير عادل، وانحراف قيمة العدالة هذا يتجلى أخيراً في دهشة

أن يصبح ود أمونة (الذي هو في خطاب السلطة المعلن «مجرم» وفي خطابهم السري شخص مرغوب في خدماته) أن يصبح رقماً سياسياً كبيراً.. كيف ينظر بركة إلى القيم في أبعادها الإنسانية المجردة، وكيف يرى السياسة كنشاط إنساني لا غنى عنه؟ كيف يرى تأثير المجتمع، بثقافاته وتقاليده، على واقع السياسة وواقع «الحقوق»..؟

الأخلاق هي أخلاق الشخص بالذات، يعني أن أخلاق الإنسان الحر هي أخلاق تتشكل عند اشتباكه بالواقع من ممارسته للحياة، من صراعه اليومي من أجل البقاء، وينتج عن ذلك فهمه للكون ومن أخلاقه الشخصية هذه التي تخصه هو بالذات قد تتكون في المستقبل الأخلاق التي يمكن أن نطلق عليها «أخلاق المجتمع»، وذلك بعد تدجينها بخطابات من لهم المصلحة في أن تكون تلك وليس غيرها هي «الأخلاق»، إذاً، تلعب موازين القوة هنا الدور الأساسي: فالشخص الحر هو من يستطيع أن يحافظ على ممارسة أخلاقه الشخصية أينما ووقتما كان، لأنها هي الأصل الذي يتماشى مع بنيته النفسية. وقس «ود أمونة» بذلك، وقس «ألم قشي» و«أداليا دانيال». وبذلك يظهر السياسي الذي يتبنى أخلاقاً في الواقع ليست أخلاقه من أجل المنفعة ويطوع القانون والخطاب الاجتماعي والديني لصالح ذلك: هو في نفسه مصاب في تلك اللحظة بالشيزوفرينيا. عندما يصبح مع موازين القوة من جانب وفي قمة انكساراته النفسية في موقع أدنى من مواقع الضعفاء. مثل المريض النفسي المكابر الذي لا يعترف

بمرضه بل يرى أنه هو الصحيح وبقية سكان العالم مرضى ومجانين. بالتالي يقوم بخراب كل شيء. فكثير منهم «ود أمونة»، بُني اجتماعياً بصورة سليمة وذلك لأنه تبنى أخلاق بُنيته هو بالذات. فأخلاق ود أمونة هي بالفعل ما اكتسبه. ثم بدأ مشروع تخريب ود أمونة. خرَّبه ذلك السياسي الذي يبحث عن منفعة جسدية ومادية، وتلك هي اللحظة التي تحول فيها ود أمونة للمعسكر الثاني، أقصد معسكر المرضى النفسيين.

- إتفق أكثر من ناقد على أنك بوجهٍ ما، تجسد «ماركيز» إفريقيا، خصوصاً من حيث تقنية الكتابة «أعني ما اصطلح على تسميته بالواقعية السحرية»، إلى أي مدى توافق هذه التقنية واقع مجتمعك الذي خبرته عن قرب وحميمية، في مقابل واقع الهتاف السياسي الذي عايشته بنفس المستوى، المفارقات الواقعية بين هذين القطبين (قطب المجتمع بقوته الافتراضية الغائبة، وقطب السياسة بقوته الحقيقية الماثلة)؟

تحدثت في حوارات أخرى عن هذا الجانب واسمح لي أن أضع تلك الإجابة هنا لأنها لازالت صالحة من أجل هذا السؤال وطازجة: لقد قلت ذلك كثيراً، إن الواقع السوداني هو واقع سحري بطبيعته، وعلى الكاتب لكي يكون منطقياً ومتوازناً فنياً، ولكي يحترمه القراء، عندما يكتب أن يقوم بالحد من هذه السحرية المنفلتة للواقع، ولكي أوضح أكثر للكثيرين الذين لم يعيشوا في السودان أو ما كانوا لصيقين به، مثلاً في بيتنا، أنا وأمي

وأهلي كلهم والجيران نؤمن تماماً بما يسمى «بالبعاتي»، وهو شخص يستيقظ بعد الموت بثلاثة أيام من موته، هو بالطبع من مجموعات سكانية بعينها. كل من في خشم القربة وهي قريتي الصغيرة التي نشأت فيها، ولعهد قريب يعرفون أن بالنهر جنيات تأخذ الناس إلى قاعه، ولقد شاهد الكثيرون هذه الجنيات. يستطيع رجل يُسمى «الكجوري» في بعض قرى كردفان بجبال النوبة أن يأتي بالمطر وقتما شاء وأينما شاء وكيفما شاء، وأن يرسل الصواعق للصوص والمجرمين. بإمكان أي من القراء أن يحمل عدداً كبيراً من العقارب والثعابين السامة جداً في يديه إذا كانت عنده تميمة اسمها «ضامن عشرة». «القمباري» هو رجل لا يستحم إلا عندما ينزل المطر وهو شخصية موجودة في مئات القرى بالسودان ومهمته هي توجيه الجراد وإبعاده عن مزارع أهل القرية مقابل بعض الذرة بعد الحصاد، ومن لم يف بذلك فإنه سيرسل له الجراد في العام القادم، ويولد هذا «القمباري» وفي معصمه نقش لجرادة وأنا استفدت من هذه الصورة في رواية الجنقو مسامير الأرض. هذه ليست أساطير الأولين، وأعرف مئات الحكايات الغريبة والعجيبة التي تحدث لأناس أعرفهم وهي خارج منطق العقل، بل قد تفاجئ الخيال: أمي -رحمها الله- كانت تؤمن بأن ما أكتبه هو تملية من أصحابي الشياطين الذين كانوا يسكنون معنا في المنزل بمدينة القضارف. فالكاتب السوداني لم يتعلم الواقعية السحرية من غابرييل ماركيز وفارغاس يوسا، ومواسير اسكلير وغيرهم، ولكنها هي واقعه المعاش اليومي والطبيعي، «وطبقات ود ضيف الله» هو أول

نص سردي سحري في السودان، ألفه أديب سوداني قبل مئات السنين، وهو يحكي وقائع يومية بسيطة حدثت أو يظن أنها حدثت لشيوخه وأفراد مجتمعه: منهم من كان يطير كالغراب، ومنهم من ينسخ من نفسه عشرات الأشخاص، ومنهم من يستطيع أن يتواجد في أمكنة كثيرة مختلفة في نفس الوقت، ومنهم من يمشي على الماء وعجائب أخرى.

هل تقف أنت - بركة ساكن - في الوسط الأخلاقي بين هذين القطبين «أعني قطب المجتمع وقطب السياسة»، أم ترى نفسك أقرب إلى أحدهما.. هل ترى نفسك مسؤولاً عن بعض تداعيات هذا الواقع المتناقض؟ سواءً بانتسابك إلى مجتمع نسي مكامن قوته، أو إلى نخبة سياسية استغلت نسيان هذا المجتمع..؟

في الحقيقة أنا لا أنتمي إلى أية نخبة لا سياسية ولا اجتماعية ولا علمية أو ثقافية. أنا ما زلت أنتمي للعامة وهذا موقعي الفعلي، أتميز عن بعضهم بإمكانيتي في أن أُعبِّر عن نفسي بالكتابة ويتميز عني الآخرون بأن لهم أدوات أخرى يعبرون بها عن أنفسهم، وغالباً ما تكون جمالية، مثل الفنون الشعبية الكثيرة. بالتالي فإن بنيتي الأخلاقية والقيمية هي بنية العامة حيث نشأتُ، وكنتُ وبقيتُ هناك، فلا أظنني أعاني من تلك الشيزوفرينا أو «البين بينية»، فما زلت أنحاز إلى حيث أنتمي: الشارع.

- الهم السياسي - الاجتماعي، يشكل مشتركاً أعظم بين أعمالك، إلى حد جعل الكثيرين يصنفون رواياتك في خانة

«السياسي» بل ويعتبرونها ضرباً من ضروب النشاط السياسي المعارض.. هل تنظر إلى السياسة كـ(شيطان أكبر) يجب مقارعته في كل الأحوال؟ أم ترى أنها وعاء شفاف يظهر ما يصب فيه على حقيقته فقط.. هل تنتظر من الساسة أن يشاركوك البكاء يوماً ما؟

كما ذكرت آنفاً فالسياسة منتج إنساني ذكوري، ولكن ينتمي إليه الجميع، أقصد لا يوجد فعل اجتماعي غير سياسي لأن السياسة واحدة من مفاتيح شفرات هذا الواقع ولا يمكن نفيها إلا بالسياسي ذاته؛ فالرواية كائن إبداعي خيالي أدبي وكل الفنون، ولكن لأن السياسي هو مكون من مكونات اليومي والفني والجمالي أيضاً فإنه يُلوِّن كل شيء بلونه: لوحة الجيرونيكا مثلاً لبابلو بيكاسو، أهي شيء آخر غير عمل سياسي في غاية الجمال؟ خريف البطريرك لماركيز، بل مائة عام من العزلة، نشيد الإنشاد المنسوب لسليمان، سورة «الكافرون»، حفلة التيس لفارجاس يوسا، هكذا تكلم زرادشت لنيتشه، أغاني عثمان حسين، أقصد حتى الذي يدعي الحيادية والجمالية البحتة هو الأكثر سياسية مثل الدادية والسريالية.

- انعكاسات انحيازك إلى جانب من اصطلح على تسميتهم بالـ(مهمشين) هل تم اعتباره من قبل النخب السياسية، موقفاً سياسياً يضعك في خانة الناشط السياسي المعارض؟ وهل أنت الآن «مشرد» سياسي، هل تتوقع اعتقالاً أو مضايقات إذا عدت في أية لحظة راهنة إلى السودان..

نعم أنا منفي الآن من أجل سوء فهم في الظاهر وإقصاء في باطن الأمر، لست ناشطاً سياسياً حزبياً، بل سياسي عادي مثلي مثل كل البشر، وما أمارسه من سياسة هو واجبي نحو نفسي ونحو البيئة التي أنتجتني، وما هي السياسة غير الانتباه لما حولك وتفسيره ومن ثم التعامل معه بالصورة التي تدعم فهمك للعالم. ولكن تشريدي هو جزء من حرب إبادة طويلة المدى تقوم بها السلطات السياسية في الخرطوم المتمثلة في أنظمة ومؤسسات المؤتمر الوطني، ما يحدث في دارفور والنيل الأزرق وجبال النوبة وكجبار هو جزء من مأساة تشردي: فمن غير المعقول أن يحتفي بك القاتل ويده تغوص عميقاً في دم أُمِكَ؟

- أصداء أعمالك إقليمياً وعالمياً، وخصوصاً أوربياً، ما تُرجم منها إلى لغات أخرى، وما تم اعتماده وتدريسه، هل يأتي في سياق احتفاء أوربا بأدب عربي-إفريقي، لافت، أم يمكن نسبته إلى أجندات سياسية، كما يرى البعض؟

ليس هنالك أية احتفائية أوربية في الموضوع، فالأمر في غاية البساطة، إن الترجمات كلها حدثت بصورة غير مقصودة تماماً وأستطيع أن أقول إنها مجهودات فردية من بعض الأشخاص: على سبيل المثال، أول من ترجم لي للإنجليزية كانت كاثرين استبلن وهي أستاذة اللغة العربية بجامعة لندن، حدث ذلك من خلال مجلة بانيبال التي تصدر في لندن باللغة الإنجليزية، وكنت أكتب في موقع كيكا، ثم أن انتبه لأعمالي البروفسير «إكزافيه لوفان» أستاذ العربية بجامعة «فري بروسل» وقام بترجمة بعض القصص

القصيرة وكتابين للفرنسية، وهو أصلاً ذو اهتمام بالأدب الإفريقي، وترجمت لي الدكتورة إشراقة مصطفى رواية الخندريس إلى الألمانية، وهي سودانية، وهذا جزء من مشروعها الأدبي، كما أن الترجمات الكبيرة إلى الإنجليزية قام بها الأستاذ عادل بابكر وهو مترجم ضليع وعصامي وهو الذي اقترح ترجمة «الجنقو» و«مسيح دارفور» وبعض القصص القصيرة، كما أن ترجمة مسيح دارفور إلى الألمانية التي ينجزها الآن الدكتور «غونتر أورت» حدثت بذات الصدفة، وغيرها وغيرها، تدرس أعمالي في معهد تعليمي بالمنطقة التي أعيش فيها الآن بالنمسا. كما ترى ليس هنالك أية مشروعات أوربية في الموضوع. ما حدث لأعمالي يحدث لأعمال أي كاتبة أو كاتب في الكون إذا كانت تحبه أُمُّه بصورة كافية. ولكن بعض البشر في السودان يحبون التفسير التآمري لكل قصة نجاح ولو أنني ما زلت في بداية الطريق: مَنفيٌ ومغرَّبٌ وأعاني من البرد.

- كيف كانت بداياتك، استقبالك كروائي قادم - أعني قبل حوالي عشر سنوات - من قبل الوسط الأبداعي؟ التعاطف والمضايقات التي خبرتها في هذا الوسط، الموقف العام والنسبي من بعض كتاباتك التي اعتبرها البعض خارجة عن روح «النظام العام»..؟؟

في الحقيقة عندما حضرت إلى الخرطوم كان العام 2000، وجدتني في معية نفر من أبناء وبنات جيلي مثل الصادق الرضي وعاطف خيري وبابكر الوسيلة ومحمد خير عبد الله وأحمد أبو حازم وأحمد عوض واستيلا قايتانو

وكلتوم فضل الله ومحمد الجيلاني وأميمة عبد الله ورانيا مأمون والمرحوم بهنس وأبكر آدم إسماعيل، والكثير من الشعراء والقصاصين والروائيين والناقدين من ذلك الجيل ومثلهم من السيدات، وأول ندوة أقيمت لي كانت بتدبير نادي القصة السوداني وقدمني للقراء الناقد محمد الجيلاني: ومنذ ذلك اليوم أصبحت كتاباتي في مواجهة عنيفة من الكارهين أو المعجبين، فبقدر ما أحبها الكثيرون بغضها الكثيرون.

obeikandl.com